الفصل الثالث

كان صباح الأحد الثاني عشر من شباط مازال عاصفاً ومع ذلك فقد عزمت على الذهاب. ولم تكن الأيام التي قضيناها في طناب مضيعة للوقت، لقد كانت فرصة مراقبة طبيعة حياة سكان هذه المزارع النائية مفيدة ونادرة ولكن أفكاري كانت تتوق للرحيل أبعد، وكنت في شوق لأتبع الطريق الذي ساروا فيه. لقد أصبحوا في متناول يدي، وقد بدا لي الأمر كذلك عندما سمعنا أنا وقبلان ونمرود وقع سنابك خيلنا على معادن سكة حديد الحجاز واتجهنا بوجوهنا نحو الصحراء المفتوحة. وهكذا سرنا شرقاً إلى الشمال تاركين المشتى قليلاً إلى الجنوب، هذا مع أن أحداً ممن عرفها وعرف فتنتها سوف يتمنى أن يولد مرة أخرى لرؤية هذه الأسوار الرائعة ويجب أن لا ننسى أن شيئاً يجب أن يقال بالنسبة لعملية التخريب التي تتعرض لها، ولو كان هناك أمل جيد في بقاء هذه الآثار كما بقيت لأكثر من ألف سنة لم تتأثر بالأمطار الشتوية، فيجب أن يسمح لها بالبقاء سليمة في هذه البلاد الحافلة بالتقلبات بحيث تعطي انطباعاً غريباً من المتعة والجمال الزخرفي، ولكن سكة الحديد أصبحت قريبة وسوف تمتلئ السهول بالناس وسوف يشعر كل من الفلاحين السوريين والجنود الأتراك بضرورة استعمالها لأغراض عملية، ولذلك لندع هؤلاء الذين شاهدوها واقفة قبل أن تهدم يحتفظون بذكراها مع العرفان بالجميل ودون إحساس عميق بالأسى.

استمر نمرود وقبلان بالثرثرة دون توقف، في وقت متأخر من الليلة الماضية قدم جنديان إلى كهف نمرود، وبعد أن استقر بهما المقام رويا قصة

غريبة. كانا جزءاً من تشكيل عسكري سحبه السلطان من بغداد، وأرسله إلى نجد لمساعدة ابن رشيد ضد ابن سعود. وقد رويا كيف أن ابن سعود قد اضطرهم للتراجع خطوة وراء خطوة حتى أبواب حايل عاصمة ابن رشيد. كما أن ابن سعود أتى مع نفر قليل من أصحابه إلى خيمة ابن رشيد ممسكاً بعمود البيت بحيث لم يتمكن ابن رشد إلا أن يرحب به. وقد اتفقا في هذا الاجتماع على أن يتخلى ابن رشيد عن كل ممتلكاته إلى الجنوب من حايل، عدا المناطق القريبة التي لا تبعد أكثر من ميل أوميلين عن المدينة، وأن يحتفظ بممتلكاته في شمالها بما في ذلك منطقة الجوف، وأن يعترف بسلطة ابن سعود على

٢٧ ـ المشتى

الرياض والمناطق الملحقة بها. وقد وجد الجنديان أن أفضل ما يفعلونه هو الهرب والاتجاه غرباً عبر الصحراء، وقد ذكرا أن معظم الجنود من رفاقهم إما قتلوا أوهربوا. لقد كانت هذه بقدر ما أعلم أكثر الأخبار التي تلقيتها من

نجد وثوقاً، ولدي من الأسباب ما يجعلني أعتقد بالتالي أنها صحيحة(*)وقد سألت الكثير من الأعراب حول أخلاق ابن رشيد، وكانت معظم الإجابات نفسها تقريباً «شاطر جداً» ثم يقولون «إنه عنيف»، ثم يستأنفون الحديث بعد لحظة «مجنون» وانطباعي عنه أنه رجل طائش حاد الطباع ذو عقل غير مستقر، مع قلة حكمة وليس قوياً وربما ليس قاسياً بما يكفي لتحمل مسؤولياته، بحكم هذه القبائل الصعبة القيادة التي كان محمد قد حكمها برباط من الخوف، (لقد كان تاريخ الحرب سلسلة طويلة من الغدر والخيانات من جهة حلفائه)، كما كان متكبراً جداً «إذا كان للصحراء أن تحكم عليه

٢٨ ـ واجهة مبنى في المشتى

(*) حاشية للمؤلفة: بعد تسجيل الأحداث أعلاه وصل ابن سعود إلى تفاهم مع السلطان بعد فشل محاولته الوصول إلى حليف قوي. وقد أتت الأخبار التي تقول إن ابن رشيد قد طرد القوة العسكرية التي أتت اسمياً لمساعدته، وثمة إشاعات حديثة جداً تقول: إن ابن رشيد قد مات.

بإنصاف» إلى درجة قد تمنعه من قبول السلم الموجود حالياً. وهو يجادل بأن الحكومة البريطانية أمدت ابن سعود بالسلاح(*) ضده عن طريق حليفه أمير الكويت (المرتبط بمعاهدة حماية مع بريطانيا) وقد ساعده في توطيد مركزه في المنطقة التي كان أجداده يحكمونها آملاً بذلك أن يضعف نفوذ السلطان على حدود الكويت. وربما بدأت المتاعب عندما حدثت صداقة بين السلطان وابن رشيد التي أمل منها ابن رشيد تدعيم مركزه، وقد شاع خبر هذه الصداقة في العالم عندما ظهرت الخيول الشمرية في إستنبول وظهرت القلابق الشركسية في حايل. وفي المحصلة لا يوجد نهاية للحرب في الصحراء وأن أي إحساس بالضيم سوف يكون له دوره في الشيخ الشاب المتهور.

٢٩ ـ القاعات الداخلية في المشتى

مع أننا كنا نركب في سهول مهجورة قد تبدو للملاحظ العادي عديمة الملامح فنادراً ما كنا نسير ميلاً أو بعض ميل إلا ونصل إلى بقعة أو موقع له اسم، وعندما تستمع إلى أحاديث الأعراب تندهش بوفرة الأسماء. فإذا ما سألت أين ينزل الشيخ الفلاني فسوف تعطى فوراً اسم نزله بدقة، وتنظر في الخريطة فلا تجد علامة وتصل إلى مخيم الشيخ فلا تجد أي مَعْلَمٍ مميز.

(*) لعل هذا من الدعاوى التي يطلقها الخصوم ضد بعضهم حيث أثبتت الأحداث بعد ذلك أن هذه الدعوة غير صحيحة ألبتة.

فارتفاع بسيط في الأرض، وحجر كبير، أو بقايا ضئيلة لخربة أو أي حفرة لا تلفت النظر يمكن أن يوجد فيها ماء في الصيف أو الشتاء، يمكن أن تشكل علامات مميزة بالنسبة لعين البدوي. اركب مع بدوي وسوف تعرف لماذا كان الشعر في العصر الجاهلي ممتلئاً بأسماء الأماكن، وكم من العبث تعيين أماكن محددة للأعداد الكبيرة لهذه الأماكن بسبب كثرة الأسماء المتشابهة التي تتكرر مئات المرات. وقد مررنا منذ قليل على مرتفع بسيط من الأرض دعاه قبلان «تليلة الحرشة» ثم مررنا على مرتفع أصغر دعاه «التليلة» وقد شد هنا لجام فرسه وأشار إلى أثفية مكونة من حجرين مسودين على الأرض قائلاً:

«هنا كان موقدي حيث نزلنا منذ خمس سنوات وهناك كانت خيمة أبي، وقد نصب ابن عمي خيامنا في أسفل المنحدر».

وتخيلت نفسي راكبة مع امرئ القيس أو أي شاعر غنائي آخر من العصر الجاهلي الذين حلقت قصائدهم عالياً في لحن لا يتغير لوجود الصحراء السريعة الزوال.

وانفتحت بوابات الغيوم بالأمطار فوق رؤوسنا وتركنا التليلة وخطونا أبعد باتجاه الصحراء. وعندما يسافر الأعرابي لا يسير بسرعة أكبر من الخطو العادي على حين أخذ نمرود يقضي الوقت حسب عادته برواية حكاياه.

سوف أخبرك قصة يا سيدتي معروفة جيداً عند العرب ولا شك أن قبلان قد سبق وسمعها. كان هناك رجل (وهو ميت الآن، ولكن ابنه مازال حياً) وكان بينه وبين بعض القبائل عداء دموي، وفي إحدى الليالي غزاه عدد من خيالة أعدائه وأخذوا جميع مواشيه وجماله وخيوله وخيامه وكل ما يملك، وأصبح وهو الغني المحترم جداً فقيراً في أمس الحاجة. فسار متنقلاً بين القبائل حتى وصل إلى مضارب قبيلة محايدة فتقدم إلى بيت الشيخ وأمسك

بعموده وقال: (أنا دخيلك) وهي العبارة التي يقولها من ينشد المأوى والحماية. فأدخله الشيخ إلى بيته وأجلسه قرب الموقد وعامله بلطف واحترام، وأعطاه بعض الماشية والجمال وبيت شعر ثم ودعه بكل حفاوة واحترام، وتحسنت أحوال الرجل ولم تمض عشر سنوات إلا وأصبح غنياً كما كان. الآن وبعد عشر سنوات تعرض شيخ العشيرة الكريم لما تعرض له ضيفه قبل عشر سنين وفقد كل ما كان يملك. فقال لنفسه سأذهب إلى ضيفي السابق الذي سبق لي أن أكرمته وأصبح غنياً الآن، عسى أن يعاملني مثلما عاملته. فسار نحو دياره وعندما دخل إلى مضاربه لم يكن الرجل في بيته ولكن ابنه كان هناك، وأمسك الرجل المصاب بعمود البيت وقال العبارة المعهودة في هذا المجال.. «أنا دخليك» ولكن الولد أجاب أنا لا أعرفك ولكن حيث إنك طلبت منا أن نجيرك، ادخل وسوف تصنع لك أمي القهوة.. وهكذا دخل الشيخ وأجلسته المرأة قرب النار وعملت له قهوة. ويعد هذا العمل دليلاً على عدم الاحترام عند العرب، وذلك عندما تقوم المرأة بعمل القهوة. وجاء رب البيت وخرج الولد وأخبر أباه بمجيء الشيخ فقال الأب: سوف نؤويه هذه الليلة باعتباره ضيفنا وغداً عند الفجر سوف نصرفه لئلا نتحمل جريرته.

٣١ ـ فلاح العزو

ووضعوا الشيخ في زاوية البيت، وأطعموه خبزاً وقهوة فقط. وفي اليوم الثاني طلبوا منه الرحيل، وأرسلوا معه فارسين بعيداً عن مضارب العشيرة مسيرة يوم واحد، كما تقضي بذلك عادات العرب مع من يلجأ إليهم، وتركوه بعد ذلك ليتضور جوعاً، أو يقع في أيدي أعدائه. ولكن نكران الجميل هذا نادر عند العرب والحمد لله، ولذلك فإن هذه القصة لم تنس.

نحن الآن نسير قرب منحدرات يمكن أن يطلق عليها ببعض التجاوز تلال، وهي تشكل نصف دائرة تمتد بعيداً إلى الجنوب، حيث نصب فلاح العزو في صحنها خيامه. وكان الدجا يحتلون ـ عندما كنت معهم ـ كل السهل الواقع تحت منحدرات جبل العليا، وأيضاً كل المنطقة الواقعة إلى الشمال الغربي بين الهضاب ونهر الزرقا. كانت خيام الشيخ الشاب بوجميِّر إلى الشمال، أما عماه فلاح العزو وحمود أبو قبلان فقد خيما قرب بعضهما في السهل الجنوبي. ولم يصدف أن التقيت حموداً فقد ركب بعيداً لتفقد بعض قطعانه. وسلم قبلان حصانه إلى أحد الأتباع وذهب رأساً ليعلن وصولنا. وعندما كنا نتوجه بخيولنا إلى بيت الشيخ الكبير خرج منه شيخ أبيض الشعر ليرحب بنا. كان ذلك مضيفي فلاح العزو، وهو شيخ معروف في كل أنحاء البلقاء بحكمته ويمتلك سلطة تتجاوز إمكانات رجل مسن من بيت المشيخة، يمارس سلطته على قبيلته.

وقبل ستة أشهر كان ضيف الشرف في جبل الدروز الذين لم يعتادوا على استقبال شيوخ العرب كأصدقاء. ولهذا السبب اختاره نمرود ليكون مستشار رحلتي. وكنا مجبرين على الجلوس في بيته بينما كانت تعد القهوة وهو عمل يستغرق ساعة كاملة، ويتم ذلك في سكون مهيب يقطعه صوت يد المهباج وهي

تسحق حبات القهوة بموسيقا عذبة عزيزة على آذان عرب الصحراء، وليس من السهل إنجازه تماماً. ولم ينته شرب القهوة حتى أصبحت الشمس ضحى، وذهبت أنا وقبلان ونمرود إلى الهضاب الواقعة إلى الشمال من المضارب لاستطلاع خرائب أثرية تحدث عنها العرب.

جبل العليا عبارة عن أرض متموجة تتدرج بارتفاع، ويمتد إلى مسافة عدة أميال ثم ينحدر تدريجياً باتجاه الشمال والشمال الشرقي. والميل العام للسلسة هو من الغرب إلى الجنوب الشرقي، وهي ترتفع على نحو حاد بعيداً عن السهل وتحمل على قممها مجموعة من الخِرَب وقد شاهدت منها خَرِبَتان وهي تبدو وكأنها خط من القلاع تحمي حدود المعمورة وبغياب النقوش يخمن أنها غسانية، والموقع الأثري الأول يقع مباشرة فوق مضارب فلاح العزو، ولدي حَدّسٌ أنه قصر العلا (وهو اسم غير معروف بالدجا) الذي أشير إليه في خريطة اكتشاف فلسطين باعتباره قريباً من سكة حديد الحجاز، فإذا كان ذلك كذلك، فإنه يقع على بعد أربعة أو خمسة أميال من المكان الذي وضعه فيه صانع الخريطة، وإن اسمه يجب أن يكون قصر العليا وليس قصر العلا، وهو تل صغير مطوق من جميع جهاته بأساسات أسوار تحيط بكتل من الآثار غير المتميزة. وسرنا مسافة ثلاثة أو أربعة أميال باتجاه الشرق، فوجدنا عند فم واد ضحل في الجهة الشمالية من جبل العليا، صهريج مياه ضخماً بأبعاد تصل إلى ١٥٠ × ١٢٥ قدماً وهو مبني على نحو جيد بأحجار منحوتة ولكنه ممتلئ بالتراب. ويوجد فوقه قرب قمة التل مجموعة من الخرائب يدعوها العرب «الموكر»(*). ولابد أنه كان مركزاً عسكرياً، حيث لا يوجد إلا عدد

(*) حاشية للمؤلفة: إنها تكتب الموقر لكن البدو يبدلون بحرف القاف القاسي جيماً قاسية غير معطشة، وقد تم وصف الموقع في كتاب (البادية العربية المجلد الثاني).

obeikandl.com

محدود جداً من آثار المساكن التي قد توحي بوجود بلدة. ويوجد إلى الشرق منه بناء مازال العرب يستعملونه كحظيرة للماشية. ويبدو أنه كان كنيسة، وهو مكون من ثلاث غرف متوازية، وقد قسم صحنه من جهة الجناحين بممر مقنطر مكون من ستة أقواس على كل جانب ما تزال واقفة، وأقواس مستديرة تستند على دعامات مبنية. وعلى الجهات الداخلية لهذه الدعامات يوجد ثقوب من أجل تثبيت حبال طويلة وربما كان المكان في وقت من الأوقات مزرباً للخيول، حيث تربط الخيول إلى أعمدة الأقواس. وقد سقفت الغرف الثلاث بعقود أسطوانية وكلا من الجدران والعقود قد بنيت بحجارة صغيرة ثبتت بملاط هش متفتت.

وعلى بعد بضع مئات من الياردات إلى الجهة الشمالية الغربية يوجد صهريج كبير، مفتوح ليس فيه مياه وقد كسيت جوانبه بالجص وفي إحدى زواياه درج متصل الدرجات. وكانت أكبر الخرب ما تزال أبعد إلى الشمال الغربي وهي تقع فوق قمة الهضبة تقريباً. ويطلق عليها العرب اسم خربة القصر وربما كانت قلعة أو ثكنة. كان المدخل الرئيسي من جهة الشرق، وحيث إن الأرض من هذه الجهة كانت منحدرة فقد دعمت واجهة المبنى بثمانية عقود سفلية كان فوقها آثار لثلاثة وربما أربعة ممرات لا يمكن الصعود إليها إلا بأدراج متصلة. وكانت دعامات مزينة قد بنيت على أطراف البوابات، ولكن القليل منها ما يزال في مكانه، وقد اغتنت الواجهة بأعمدة وأفاريز قد تناثرت قطع من حطامها على الأرض في الأسفل، مع رؤوس أعمدة بتصميمات متنوعة. وكانت جميعها من الطراز الكورنثي البدائي مع إن بعضها قد ابتعد بزخارفه كثيراً عن هذا الطراز.

٣٢ ـ تاج عمود في قصر الموقر

وبعض الزخارف على شكل أوراق نباتية بسيطة، وهي عبارة عن مجموعة من ثلاثية الأوراق النباتية في انحناءات متعاقبة للأغصان المتدلية. كما كان بعضها على شكل نتوءات مستديرة غطيت بنماذج من أوراق نباتات النخيل. وعرض الواجهة حوالي أربعين خطوة، وخلف الواجهة حجرة انتظار صغيرة فصلت بجدار عرضي عن ساحة مغلقة، ولا أستطيع أن أجزم فيما إذا كان هناك غرف حول هذه الساحة الداخلية المغلقة، فقد ارتفعت أرضها بالأنقاض وبنبات الطرفاء النابت فوقها. وفي كلا طرفي العقود الثمانية يوجد قبو، فيصبح مجموع العقود عشرة. ولكن القبوين الإضافيين لا يبدو أنهما قد دعما بأي أساس من أي نوع. والجهة الضخمة من جدران الغرفة الداخلية تستند على الجدران الخارجية للعقود المركزية الثمانية. والبناء مكون من حجارة مربعة بينها كِسَرُ حجارة تم تثبيتها بالملاط.

٣٣ ـ تاج عمود في قصر الموقر

وركبنا نازلين بشكل مستقيم من الهضبة، وتابعنا سيرنا بنفس الاتجاه في السهل عند سطحها مارين بموقع أثري آخر يطلق عليه العرب اسم (النجيرة) وهذه الكومة من الحجارة المنحوتة يطلق عليها العرب اسم (الرجم). وقد يكون من المستغرب أن يعرف الإنسان كم يجب أن يبعد باتجاه الشرق حتى يجدها. وكم كانت الصحراء مسكونة على الدوام فيما مضى من الأيام. وقال قبلان: إنه على بعد مسيرة يوم من جبل العليا توجد قلعة تسمى (القرنية) وقلعة ثالثة ليست بعيدة عنها تدعى (أم أرساسي) وأكثر من ذلك يوجد في بعضها نقوش

ومن السهل زيارتها جيمعاً في الشتاء عندما تكون المراعي الغربية خالية تقريباً (*). وقد علمني بينما كنا نسير أن أقرأ الصحراء، أن ألاحظ حفر الحجارة الكبيرة المربعة وقد سطحت لتكون أسرة لأطفال العرب، والأعشاش نصف المستديرة في الأرض التي تفرغها النياق من أجل أبنائها الصغار. كما علمني أيضاً أسماء النباتات المتناثرة في الأرض، فوجدت أنه على الرغم من أن الثروة النباتية ضئيلة في الصحراء من حيث الكم فهي متنوعة جداً. وأن لكل نوع منها فائدةٌ ما عند العرب. فهم يعطرون زبدتهم بأوراق الأثروفان. ويصنعون من الكرسنة الشائكة سلطة رائعة. كما أن الجمال تتغذى من شوك البلان، والأغنام تقتات من الشيح، كما أن رماد القلو يستعمل لصنع الصابون. وقد سر قبلان أن يمثل دور الأستاذ فكنا إذا مررنا بباقة من الأعشاب المزهرة الرمادية الزرقاء الشائكة وبأخرى مشابهة كان يسأل: «ما هذا يا سيدتي ؟» ويبتسم بفرح إذا كانت الإجابة صحيحة.

٣٤ ـ رأس عمود من قصر الموقر

كان علي أن أتعشى تلك الليلة في بيت فلاح العزو. وعندما كان آخر خيط من الشفق الأحمر يهبط في الغرب، جاء قبلان ليأخذني. وكان المخيم الصغير يضج بالحياة مقترناً بكل مظاهر الحيوية التي تميز مخيمات البادية بعد غياب الشمس، من عنين الإبل ورغائها إلى ثغاء الأغنام والماعز ونباح الكلاب الذي لا ينتهي، ولم يكن

(*) حاشية للمؤلفة: لقد زار السيد موزيل العديد من هذه الخِرَب الأثرية، ولكن كتابه لم يطبع بعد.

هناك نور في بيت الشيخ إلا لهب النار. وكان وجه مضيفي الجالس في الجهة المقابلة للنار أمامي، يختفي من خلال عمود الدخان الخانق أمامي في بعض الأحيان، ثم يستنير أحياناً أخرى عند تصاعد اللهب. وعندما يزور ضيف محترم بيت العربي فمن الواجب أن تذبح ذبيحة على شرفه، وهكذا أكلنا بأصابعنا لحم خروف جميل ولبناً مخثراً وخبزاً مشروحاً. والمدهش أن العرب حتى في الولائم الليلية لا يأكلون إلا قليلاً، وأقل بكثير من امرأة أوربية ذات شهية جيدة. وعندما لا يكون هناك ضيف فإن الخبز وحليب النياق هو كل ما يحتاجون إليه [1]. والحق يقال إنهم يقضون معظم اليوم في النوم أو بالثرثرة تحت الشمس. وقد عرفت عربياً ارتحل مسيرة أربعة أشهر ولم يكن لديه إلا مقدار ضئيل من الطعام. وعلى الرغم من أنهم يستطيعون العيش على مقادير ضئيلة من الطعام إلا أنهم يعانون من الجوع في معظم الأحيان. وهم هزيلو الأجسام رقيقو العود وأي مرض تتعرض له العشيرة فإنه يحصد نسبة كبيرة من أفرادها. وقد حضر خدمي الوليمة، وحيث إننا كنا قد تركنا محمداً أو طريفاً حسب التسمية الجديدة ليحرس مخيمنا أثناء غيابنا، فقد أُرسل له صحن عارم من الطعام في الليل «وذلك من أجل الضيف الذي بقي في المؤخرة».

دخل فلاح العزو ونمرود في مناقشة ممتعة حول القهوة، الأمر الذي ألقى ضوءًا على أوضاع القبائل في البلقا. وقد ركزا على انتهاكات المدنية الزاحفة بالتدريج. وقد امتلأت مرابعهم الصيفية تدريجياً بالفلاحين والأمور إلى أسوأ حيث إن مناهلهم الصيفية بالمياه قد شغلتها القرى الشركسية الحديثة حيث

(١) الواقع أن المستوى الصحي عند البدو منخفض جداً، وهم يعانون عموماً من سوء التغذية، واللحم ترف لا يذوقه فقيرهم إلا نادراً، وغنيهم إلا إذا كان هناك ضيف كبير، خلافاً لما يتصوره عوام أهل المدن. (المترجم)

أسكن السلطان الشراكسة الذين طردهم الروس من بلادهم في القوقاز في المناطق الشرقية من سوريا. والشراكسة شعب كريه نكد المزاج محب للشجار. ولكنهم صناع مهرة، وتجار مغامرون بما لا يقاس، وهم ينتصرون بشكل دائم في صراعهم اليومي مع البدو. وقد جروا حديثاً المياه من الزرقا وأصبح البدو يعتمدون عليها للسقاية في الصيف، مما شكل سبباً للحرب وأصبح من المستحيل على البدو النزول إلى عمان، معقل الشراكسة الرئيسي، من أجل شراء الحاجات القليلة التي يحتاجها البدو مثل القهوة والسكر والتبغ. وكان من رأي نمرود أن تطلب قبائل الزرقا من الحكومة أن تعين مدير منطقة (قائم مقام) من أجل ضمان مصالحهم. ولكن فلاح العزو متردد في دعوة الطائر الملكي، مخافة أن تفرض عليهم الخدمة العسكرية، وتعداد الماشية وغير ذلك من الممارسات المكروهة. والحقيقة أن أيام عرب البلقا أصبحت معدودة أن يعاد سكن القرى المخربة كما كان الأمر في القرون الماضية وأن يتم توطين الناس على مقاطعتهم كلها فإن عليهم عندها أن يختاروا بين أن يتحولوا هم أنفسهم إلى فلاحين، فيبنوا القرى ويفلحوا الأرض أو أن ينسحبوا أكثر نحو الشرق حيث من الصعب الحصول على الماء في الصيف ودرجة الحرارة أعلى مما اعتادوا هنا.

وانتقل نمرود من هذه التساؤلات المنوطة بهم إلى مدح حكم الإنكليز في مصر. وهو لم يذهب إلى هناك ولكنه سمع حكايا من أحد أبناء عمومته الذي يعمل كاتباً في الإسكندرية. وقد عرف منه أن الفلاحين أصبحوا أغنياء وأن الأمان في الصحراء مثله في المدن.

«لقد توقفت الصراعات الدموية» قال: «والغزو، وذلك أنه عندما يسرق أحد ما جمل شخص آخر، انظري ما يعملون، يذهب مالك الجمل إلى أقرب

مخفر شرطة ويقدم شكوى، فيركب الشرطي جواده ويذهب وحيداً في الصحراء إلى خيمة السارق ويرمي السلام ويدخل. فماذا سيفعل صاحب الخيمة ؟ يعمل قهوة ويعامل الشرطي كضيف، وبعد أن يشرب الشرطي القهوة يدفع لصاحب الخيمة ثمن فنجان القهوة، وثمن الطعام الذي أكله، ولا يقبل ضيافة صاحب البيت. ويرجع في صباح اليوم التالي بعد أن يطلب من صاحب البيت إعادة الجمل أو الجمال المسروقة ويعطيه مهلة عدة أيام لجلبها إلى المخفر. ويخاف السارق من العاقبة، ويعيد الجمال التي سرقها إلى المخفر فإذا لم يكن العدد المعاد كاملاً يحاكم السارق ويسأل القاضي المالك كم ثمن الجمل، فيجيب ثماني ليرات فيطلب من السارق دفع الثمن، فيدفع السارق، والله»[1]

٣٥ ـ حَلْبُ الغنم

(١) تريد الكاتبة هنا أن تضفي حلة قشيبة على الاستعمار البريطاني في مصر، وهذا خلاف للواقع، لقد منع الاستعمار البريطاني مصر من استكمال المسيرة الحضارية التي بدأت في عهد محمد علي، وعندما خرجت بريطانيا من مصر مرغمة عام ١٩٥٦م كانت نسبة الأمية في مصر أكثر من ٧٥٪ وكان دورها في مصر وفي كل المناطق التي احتلتها في الوطن العربي دوراً مخزياً، فقد خرجت من عدن بعد استعمارها بمئة وثلاثين سنة ونسبة الأمية ٩٠ ٪ وليس فيها أي منشأة حضارية عدا مصفاة النفط التي بنتها من أجل تموين أسطولها في المحيط الهندي.

لم يبد فلاح العزو أي موافقة على مزايا النظام الإنكليزي في مصر، ولكنه أصغى باهتمام بينما كنت أشرح مبادئ مصرف الفلاحين كما فهمتها، ولكنه سأل في نهاية الحديث فيما إذا كان من الممكن إقناع اللورد كرومر بمد سلطانه إلى سوريا وهي دعوة لا أرغب بتبنيها باسمه.

وقد سئلت قبل خمس سنوات سؤالاً مشابها في جبال حوران، وقد أثقلت الإجابة عن السؤال آنذاك حنكتي السياسية. فقد اجتمع شيوخ الدروز في قنوات في خيمتي ليلاً في ذلك الوقت، وفي حذر كثير، وبعد حومان حول الموضوع، وتطمينات كثيرة من قبلي بأنه ليس هناك من يسترق السمع، سألوا فيما إذا كانوا يستطيعون اللجوء إلى اللورد كرومر في مصر، إذا ما نقض الأتراك اتفاقهم مع جبل الدروز، وفيما إذا كنت أقبل بمهمة إيصال هذه الرسالة إليه. وقد أجبت بلهجة من يزن الوضع من جميع جوانبه بأن الدروز شعب جبلي وأن مصر سهل وليس فيها جبال، وهي بالتالي لا تلائمهم بالتالي. فنظر شيخ البلد إلى شيخ العقل، وقد تفتحت أمام أعينهم صورة أرض من دون معاقل جبلية يمكن اللجوء إليها عند الحاجة، أو من دون ممرات جبلية يسهل الدفاع عنها، ولذلك فقد أجابوا أن الموضوع يحتاج إلى تفكير أكثر، ولم أعد أسمع الموضوع منهم مرة أخرى، مع ذلك فالمغزى واضح، ففي جميع أنحاء سوريا وحتى في الصحراء، وحيثما كان موقع الإنسان سواء من خلال إحساسه بفكرة العدالة، أو من خلال عجزه، فهو يرغب في أن يكون تحت الحكم الذي جلب الرخاء لمصر. وإذا كان احتلالنا لهذا البلد الذي حول عنا

عواطف المحمديين في البداية فإن سلوكنا هناك قدَّم أفضل دعاية للطريقة الإنكليزية في الحكم(*).

قبلان بن حمود الدجا

بينما كنت جالسة أصغي للكلام الذي يدور حولي وأنظر إلى السماء المرصعة بالنجوم، شرد ذهني في قطار الذكريات الذي كان أساس عملنا طوال اليوم، وأنا أستمع إلى مقالة قبلان عندما توقف عند بعض آثار مضاربهم في العام المنصرم، فقلت: «في عصور ما قبل الإسلام كان آباؤكم يتحدثون كما تتحدثون الآن، ويستعملون اللغة نفسها ولكننا لا نعرف الأسباب التي أدت إلى إضاعتكم معاني الكلمات التي كانوا يستعملون، والآن أخبروني ما معنى هذه العبارة أو تلك».

وانحنى الرجال المتحلقون حول النار، وعندما ارتفع اللهب رأيت وجوههم السمراء، عندما كانوا ينصتون لما أقول.

«بالله !، هل قالوا هذا الكلام قبل الرسول ؟»

ما شاء الله نحن مازلنا نستعمل الكلمة نفسها، إنها العلامة على الأرض حيث تنصب الخيمة.

(*) قد يبدو وكأن القلاقل في مصر الآن تلقي ظلالاً من الشك حول هذه الملاحظات. ولكن أنا لا أعتقد أنه يجب النظر إلى القضية من هذا المنطلق، لقد نسي المصريون المآسي التي خلصتهم منها الإدارة الإنكليزية، بينما مازال السوريون وسكان الصحراء يعانون من ثقلها ووضع جيرانهم في عيونهم مرغوب فيه على نحو لا لبس فيه. ولكن عندما يطرد الذئب بعيداً عن باب البيت فالكوابح التي تفرضها القوانين الثابتة، تؤثر سلباً في المزاج غير المستقر فالناس غير المستقرين معتادون على اعتبار الحكم السيئ والاستفادة من اللين المعتاد والفرص العرضية للتقدم غير المستحق الذي يميزه. والعدالة شيء كبير جداً عندما تقوم بالسهر على حقوقك، ولكنها لعينة جداً عندما ترغب باغتصاب حقوق الآخرين ولن يتوانى فلاح العزو وأمثاله باكتشاف عيوبها (المؤلفة).

وقد شجعني هذا الكلام فاستشهدت ببيت امرئ القيس الذي أوحى به كلام قبلان.

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

بسقط اللوى بين الدخول وحومل

ورفع قبلان الواقف بجانب عمود البيت رأسه قائلاً: «ما شاء الله.. ذاك عنترة».

ينسب العرب الأميون كل الأشعار التي تروى إلى عنترة وقبلان لا يعرف اسماً آخر من أسماء الشعراء، «لا..» قلت: «لقد تحدث عنترة على نحو آخر». قال:

هل غادر الشعراء من متردم

أم هل عرفت الدار بعد توهم ؟

وكان لبيد أفضل منهم جميعاً عندما قال:

عفت الديار محلها فمقامها

بمنى تأبد غولها فرجامها

فمدافع الريان عُرِّيَ رسمها

خلقا كما ضمن الوجِّيُ سلامها

وأومأ قبلان موافقاً وقال:

بالله! كان المكان مليئاً بالمواضع حيث أقمت.

لقد التقط قبلان ملاحظتي ونظرت وراءه متمتعة بالليل، ورأيت الصحراء بعينيه، لم تكن قفر أبداً بل تعج بالصحاب من البشر أكثر من أي مدينة. كل مسلك فيها له نصيبه من الأهمية، كل حجرة تشبه شبح الموقد حيث دفء حياة العربي نادراً ما يعتريها البرد. مع أن النار قد خمدت في مئة السنة الأخيرة هذه، إنها مدينة من الصور الظليلة المتداخلة في بعضها، بحيث يمكن رؤية الواحدة منها تحت الأخرى، تتلاشى وتتبدل مشكلة أشكالاً بعناصر جديدة قديمة قدم الزمان، يتعذر تمييز جديدها عن قديمها وقديمها عن جديدها.

ليس لها اسم ينطبق عليها، لا يتحدث العرب عن الصحراء أو القفار مثلما نتحدث نحن، ولماذا عليهم أن يفعلوا؟ إنها بالنسبة لهم ليست صحراء ولا قفرا، ولكنها أرض يعرفون كل معالمها، إنها أمهم التي تقدم لهم كل ما يحتاجونه. إنهم يعرفون، أو على الأقل قد عرفوا في الأيام التي صاغت أفكارهم فيها نفوسهم في شعر خالد لا يموت، لقد عرفوا كيف يستمتعون بجمال هذه الفيافي الشاسعة، وكيف يجلون اندفاع العواصف، لقد مجدوا في العديد من أبيات الشعر مواطن الجمال في حومات المياه، ويتغنون بالذباب الذي يهوم غرداً مثل شارب الخمر عندما يدندن بالشعر لنفسه، أو ببرك مياه المطر التي تلتمع مثل قطع الفضة.

جادت عليه كل بكر حرة

فتركن كل قرارة كالدرهم

وخلا الذباب بها فليس ببارح

غرداً كفعل الشارب المترنم

هـــزجـــاً يحـــك ذراعـــه بـذراعـــه

قـــــدح المكب على الـزناد الأجـــــزم

أو ببـرك ميـاه المطر التي تلتـمع مثل قطع الفـضـة، أو تومض في الظلام مثل درع الفـارس عندمـا تحـركـه الرياح. لقـد راقـبوا وهم يعبـرون وديان الميـاه الجـافـة، الليل البطيء السيـر على نحـو مـدهش حيث تبـدو النجـوم وكـأنهـا مربوطة إلى السماء بسلاسل كما لو أن الفجر لن يأتي أبداً.

حتى تخيل امرؤ القيس أن الثريا التي تشبه شبكة من الجواهـر قد شدت بأمراس إلى صم جندل فهي ثابتة في مكانها لا تريم.

ولـيل كـمـــوج البـــحـــر أرخـى سـدولـه

علـي بـأنواع الهـــمـــــوم ليـــبـــتلي

فـــــقـلـت له لما تمطى بصلبـــــه

وأردف أعـــــجـــــــازاً ونـاء بـكـلـكـل

ألا أيـهـــــا الـلـيـل الـطـويـل ألا انجـلـي

بصـبـح ومـا الإصـبـاح منك بأمـثـل

فـــيـــا لـك من ليـل كـــأن نجـــومـــه

بـكل مـــغـــار الفـــتل شـــدت بيـــذبل

كما وصف الذئب الذي يعوي في الظلام وكأنه ينشد الرفقة والأنس.

وواد كجوف العير قفر قطعته

به الذئب يعوي كالخليع المعيل

فقلت له لما عوى إن شأننا

قليل الغنى إن كنت لما تمول

كلانا إذا ما نال شيئاً أفاته

ومن يحترث حرثي وحرثك يهزل

ولكن في الليل أو في النهار لا يوجد خوف أكبر من قدرة الإنسان على السيطرة، خوف لا معنى له. ولا عدو لا يمكن قهره. وشعراء العصر الجاهلي لا يطلبون العون عند الشدة لا من الله ولا من البشر، وعندما يحيق الخطر بهم يتذكرون صانع سيفهم، وأصالة جوادهم، وبسالة قبيلتهم وذراعهم القادرة على القتال والمنافحة. ومن ثم فقد تألقوا كما يجب أن يتألق الرجال الذين تجري الدماء حارة في عروقهم، ولم يمدحوا من لا يستحق المديح.

هذا طبع شعر عظيم، يعادل في عظمته أعظم ما لفظته شفتا إنسان. كل خبط في تجربة العربي له أثره ودوره ويتم ترجيع أعمق المشاعر العاطفية. ولا يوجد أروع من الأبيات التي لخص بها لبيد تجربته في الحياة. شعر كل بيت من أبياته الأربعة عشر مفعمة بالأسى والحزن المهيب فوق كل مديح. كان يبدو حزيناً أمام العمر المديد والموت والنهايات مع تسليم رزين بمحدودية الحكمة الإنسانية.

لعـمـرك مـا تدري الضـوارب بالحـصى

ولا زاجــرات الطيــر مــا الله صــانع

وصوت الإنذار ليس أبداً صوت الرعب. وهو يتكرر على نحو كاف، ولكنه لا يعكس أبداً خوفاً مسعوراً عند الشاعر. يقول طرفة:

لعــمــرك إن الموت مــا أخطأ الفــتى

لـكَالـطِّوَلِ المرخى وثِـنْيَـــاه بالـيـد

ألا أيهـــذا اللائمي أحـضـــر الوغى

وأن أشـهـد اللذات هل أنت مـخلدي؟!

فـــإن كنت لا تسـطيع دفع منيـــتي

فـــدعـني أبادرها بما مـلـكت يـدي

ويعرض زهير تجربته غير خائف أيضاً:

وأعلم علـم اليـــوم والأمـس قـــبـله

ولكنـني عن علم مـــا في غـــدٍ عَمِ

رأيت المنايا خـبـط عـشـواء من تصب

تمتـه ومـن تخطئ يعـمـر فـيـهـرم

إن نسمة الحياة تتناول الجميع كهولاً وشباباً، رجالاً ونساءً، ومن بين أروع القصائد التي خلفها أدب الصحراء القصيدة التي رثت فيها قتيلة بنت الحارث، أخاها النضر بن الحارث، وقيمة هذه القصيدة كوثيقة تاريخية لا

obeikandl.com

تقل عن روعتها كقصيدة رثاء عاطفية، وملخص القصة، أن النضر أسره المسلمون في منطقة الأثيل، بعد معركة بدر فأصدر الرسول أمراً بقتله. ونحن نلمس في شعر قتيلة الشعور المتمرد الذي قوبلت به دعوة الرسول الكريم من قبل معاصريه الذين لم يقبلوها، ممتزجاً بالاحترام الضروري للرجل الذي ينحدر من المحتد النبيل نفسه الذي ينحدرون منه.[1]

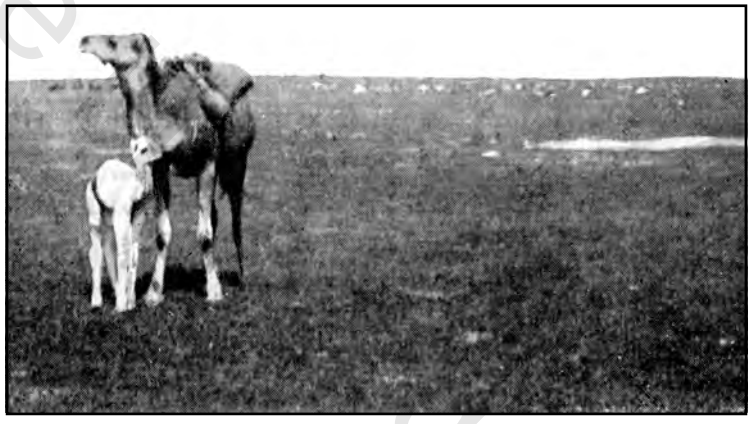

٣٧ ـ على طريق الحج

يا راكباً إن الأثيل مظنةٌ

من صبح خامسة وأنت موفق

(١) كان النضر بن الحارث دائم السخرية من الرسول الكريم عندما كان في مكة، والسخرية من تعاليمه وآياته. وقد أسره المسلمون بعد معركة بدر فاستسمح من الرسول فعفا عنه وأطلقه، ولما عاد إلى مكة عاد إلى السخرية من الرسول مرة أخرى في أندية قريش، فلما قبض عليه مرة أخرى استسمح من الرسول فرفض الرسول قائلاً: «والله لا أدعك تمسح عارضيك بستار الكعبة وتقول خدعت محمداً مرتين». وأمر بقتله فقتل. ويقال: إنه عندما سمع رثاء قتيلة في أخيها النضر قال لو سمعت هذا من قبل لعفوت عنه. (المترجم)

بلغ بهـا مـيـتـاً فـإن تحـيـة

مـا إن تـزال بهـا الـركـائب تخـفـقُ

مني إليـه وعـبـرة مـسـفـوحـة

جـادت لمائحـهـا وأخـرى تخنقُ

فليـسـمـعن النضـر إن ناديتـه

إن كـان يسـمع مـيت أو ينطق

ظلت سـيـوف بني أبيـه تنوشـه

لله أرحـاك هناك تشـقـق

أمـحـمـد ولأنت نجل كـريمة

من قـومـهـا والفـحل فـحل مـعـرق

مـا كـان ضـرك لو عـفـوت وربما

منَّ الفـتى وهو المغـيظ المحنق[1]

والنضـر أقـرب من أصـبت وسـيلة

وأحـقـهم إن كـان عـتق يعـتق

وعلى جناح أقوى لروح الحرية الصحراوية الجامحة التي كانت تتفاعل في صدر سجين في مكة، فغنى للحب والموت أبياتاً خالدة لا يمكن أن يعتورها النسيان:

هواي مع الركب اليـمـانين مـصـعـد

جنيب وجـثـمـاني بمكة مـوثق

(١) رويت أيضاً ما كان ضرك لو مننت وربما. الخ.

obeikandl.com

عـــجـــبت لمســـــراها وأنى تخلصت

أيَّ وبـاب الســـــجن دونـي مـــــغلـق

ألمت فـــحـــيت ثم قـــامت فـــودعت

فلمـــــا تولت كـــــادت النفس تزهق

فـلا تحـسـبـوا أني تخـشـعت بعـدكم

لـشـيء ولا أنـي مـن الموت أفـــــــرق

ولا أ نفـــسي يزدهيـــهـــا وعـــيـــدكم

ولا أنني في المشي في القـيـــد أشـفـق

ولكن عـــــرتني في هواك صـــــبـــابة

كـــمـــا كنت ألقى منك إذا أنا مطلق

كربُ الأسَرُ والرؤية المتخيلة لحبيبة القلب التي لم تستطع جدران السجن أن تبعدها. ثم الاحتجاج المرهف لئلا يظن أعداؤه أو يتخيلوا أن روحه قد هزمت، وذاكرة الرجل القوي الشجاع للعاطفة التي هزت حياته وجعلت روحه جاهزة لقهر الموت.

نادرة تلك الأمثلة التي تمثل نبل العاطفة الموجودة عند هذا الشاعر الذي ولد ونشأ على رمال الصحراء. لقد ترك شعراء العصر الجاهلي الغنائيون شعراً شكل سجلاً عبّر عن عرقهم لا تستطيع أن تجاريه أمم أكثر غنى أو حكمة[1].

(١) حاشية للمؤلفة: لقد استعرت ترجمة السير شالز لايل الأكثر مدرسية لهذه القصيدة وللقصيدة السابقة. (المؤلفة)